

مقدمة في اللغة والحضارة

د . ابراهيم السامرائي
كلية الآداب - جامعة بغداد

بحث أهل العلم من المفكرين والفلاسفة في مدلول « الحضارة » وما تنصرف اليه في شؤون الحياة وما يتصل بالناس من أفكار وعادات ومواد وطرائق . ولعلمهم انتهوا الى ان البشرية الأولى قد مرت بمراحل انتهت الى نموذج حضاري من الاستقرار والفكر والسلوك ، وما يتطلب جماع هذا من لوازم .

ومن غير شك ان في هذه المادة من الافكار العامة والمبادئ الاساسية قدراً كبيراً يجمع بين الحضارات قديمها وحديثها في مشرق الارض ومغربها . وهذا لا يبعد ما تتصف به الحضارات المختلفة من سمات خاصة فرضها الزمان والمكان . وهذا يؤدي الى أن تكون حضارة الاقسام الشمالية غير حضارة الاقسام الجنوبية ، وحضارة الاقاليم البحرية شيء آخر ، ثم ان حضارة البلدان الباردة غير تلك التي تشتد فيها الحرارة ، ومثل هذا يقال في الحضارة اليونانية والرومانية والعربية والارانية والهندية والصينية . وليس غريباً أن تطبع الاديان الحضارات بطابع خاص فالحضارة المسيحية غير الحضارة الاسلامية مثلاً .

قلت : لقد بحث أهل العلم في مادة « الحضارة » ، فكان طبيعياً ان يعرضوا لما يتصل بمصطلح « المدنية » . وليس في العربية فرق كبير بين الحضارة والمدنية ذلك ان « الحضارة » متصلة بالحضر والحاضرة ، ومثل

ذلك « المدينة » التي تتصل هي أيضاً بالمدينة (١) . غير ان الباحثين في الموضوع ذهبوا بعيداً في الكلستين الاعجميتين ولا يهمننا في هذه الدراسة شيء كثير من ذلك .

ان الحضارة في العربية نقيض البداوة ، والحاضرة تقابل البادية وكلمة « الحضر » تقابل كلمة « البدو » . ولقد أحسن الشاعر القديم حين قال :
ومن تكن الحضارة أعجبته فأني رجالٍ باديةٍ ترانا

ومن غير شك ان « البداوة » تشغل حيزاً كبيراً في « العربية » وذلك أن الأصول القديمة في العربية اعتمدت من بين ما اعتمدت على مادة ذات أصول عميقة في الحياة البدوية . ولا أريد أن أصرف الجهد فأعرض لهذا الموضوع وذلك لاني أفردت له دراسة خاصة (٢) تتصل بتاريخ العربية .

وفي طوق أي باحث ان يهتدي الى المواد البدوية في أدبنا القديم مما يتصل بالبادية ولوازمها من شخوص مادية وأخرى مما يعود الى الحيوان والنبات والشجر . وكثير من هذا واضح في الادب القديم جاهليته واسلاميته ، ولا حاجة بنا الى أن ندل على ذلك فهو معلوم مشهور .

وكان الباحثين لما رأوا من صفات البداوة في أدبنا القديم أخذوا بذلك وغلبوه على سائر الصفات الاخرى حتى لكأن ذلك الادب مقصور على أنماط بدوية لا يتجاوزها الى غيرها . وكان « الجاهلية » شيء يرادف الجهل للبداوة التي غلبت على غيرها من مظاهر الحياة الجاهلية الاخرى .

(١) المدينة كلمة قديمة لا تختص بالعربية وحدها من بين اللغات السامية وذلك لان مادة « دين » وهي مادة سامية تعني الحكم والقضاء . ومن هنا ظل شيء من ذلك فقيلاً « يوم الدين » في العربية للدلالة على الحكم والحساب . وكانت كلمة « بيت دين » في العبرانية تعني « المحكمة » او دار الحكم ، وكان من ذلك ايضاً ان تكون مكان اجتماع الناس للحكم والسلوك الانساني الذي يعتمد على الحق والنظام .

(٢) كتاب يتصل بتاريخ العربية موسوم بـ « من تاريخ العربية » .

ان مصطلح الجاهلية شيء جاء به الاسلام ، وهو من غير شك نيز
لجميع مظاهر الحياة قبل الاسلام . ومن غير شك أيضاً أن « الجاهلية »
بالنسبة الى الاسلام حياة تفتقر الى كثير من مظاهر الحياة الحضارية التي جاء
بها الاسلام فكراً وعقيدة وسلوكاً . ولعل الباحثين سعوا مدفوعين بهذا
النظر ، وغير شاعرين ، الى سلب كل فضيلة من عهود الجاهلية المنبوزة ، فلم
يَتَحَرَّوا المظاهر الحضارية في عصر ما قبل الاسلام عامة .

ومن حق العلم ان يفترض الباحث الجاد ان في تلك العهود التي سبقت
الشريعة الغراء أنماطاً حضارية تتصل بالأدب والفكر والسلوك ومظاهر مادية
حسية عرفها الناس وأفادوا منها .

ومن البديهي أن يكون أولئك القوم في جاهليتهم على نحو فكري متقدم
اذا عرفنا أن كتاب الله ، مصدر الفكر والحكمة ، قد توجه اليهم وخاطبهم وقد
بشّر الرسول الأمين به التماساً لهدايتهم ، وليس من العقل والمنطق أن يأتي
كلام الله بهذا السداد والحكمة في قوم غلبت عليهم بدائية جاهلة لا تفقه الا
اليسير مما يضطربون فيه .

وفي كلام الله ما يومىء الى أن العرب غير الأعراب فاذا كان القرآن قد نيز
أولئك الاعراب بالجفوة والقسوة والضلالة فلا يعني ذلك ان جمهرة المجتمع
القديم بداءة جفاة لم يهتدوا الى شيء من معاني الحياة الحضارية .

ومن الغريب ان الباحثين في تاريخ الادب القديم قد فاتهم علم كثير حين
زعموا أن الأدب العربي القديم أدب بيئة بدوية ، وهم يشيرون الى وصف
الثلوات والاطلال والدمن وما يعرض فيها من حيوان ونبات وشجر .
وهم يشيرون كذلك الى أن الشاعر القديم يقطع تلك البيد على راحلته فيصف
سيرها ويصف الطريق الذي يدرج فيه ثم يأتي على وصف تلك الراحلة .
وجملة هذا وغيره من مواد الأدب تؤلف الصورة البدوية الجاهلية .

قلت : ان الباحثين في الأدب قد فاتهم علم كثير حين ذهبوا ذلك المذهب فقلدهم فيه خلق كثير وسار على نهجهم الدارسون الى يومنا هذا . ان الاستقراء الوافي لمادة الأدب القديم تكشف عن صفحات جديدة غريبة لم يهتد اليها أولئك الدارسون .

أقول : ان الاستقراء الوافي ليشير الى أن جملة ما تشتمل عليه القصيدة الجاهلية حشد لمواد كثيرة لا تعدم أن تجد فيها فكراً يتصل بحضارة وأدوات وحاجات تبتعد عن البداوة المعروفة . وسأعرض بعد هذه المقدمة لاستقراء ما في الأدب الجاهلي من مواد الحضارة لأدفع بالدليل الأكيد ان الجاهلية لم تكن خلواً من الفكر الذي استطاعت العربية في تلك الأحقاب أن تقي بهذه المهمة فكانت لغة حضارة وبداوة في الوقت نفسه .

ومن غير شك أن الاسلام قد امتحن هذه اللغة فكانت في عهوده كلها الأداة المحكمة في الوفاء بالحضارة الجديدة التي جاء بها الاسلام عقيدة وأحكاماً وسلوكاً . ثم ان هذه الحضارة الجديدة قد اندفعت شرقاً وغرباً فكان لها أن تتصل هنا وهناك بأنماط حضارية أخرى .

ولقد كانت هذه محنة جديدة امتحنت بها العربية فكانت اللسان المفضل للإعراب عن هذه المواد الجديدة من أجنبية وافدة وأخرى مما تمخض عنه اتصال الفكر العربي الاسلامي بغيره مما واجهه في تلك البقاع التي أنساح فيها .

وسأعنى ببيان هذه الألوان التي استطاعت فيها العربية أن تقي بتلك المواد في العصور المختلفة وسأنتهي من ذلك الى شيء مما تضطلع به العربية في عصرنا هذا فتواجه العصر الجديد بمشكلاته العلمية المعقدة .

ولعلي سأفي بشيء من هذا فأثبت مادة لها مكانها وخطرها في تاريخ لغتنا .

لقد حفل أدبنا القديم بسواد حضارية تتصل بالعقيدة الدينية وبأنماط أخرى من فنون وأدوات هي من صنع الاستقرار الحضاري .

واني لأبدأ بما يتصل بالفكر الديني في نصوص الأدب القديم فأجد من ذلك قول امرئ القيس^(٣) :

حلت لي الخمرُ وكنت امرأً عن شربها في شغلٍ شاغل
فاليوم أسقى غير مستحقبٍ إثمًا من الله ولا واغل
قال : « حلت لي الخمر » وذلك لما قتلت بنو أسدٍ أباه حرّم على نفسه
الخمر حتى يأخذ بثأر أبيه ، فلما غارهم وقتلهم حلت له •

وقوله : « غير مستحقب إثمًا من الله ولا واغل » أي غير مكتسبه
ولا محتمله فيقول : انه يشرب الخمر وقد حلت له فلا يآثم ، ويكرّم نفسه
عن أن يشرب الوغل وهو ما يشربه الواغل أي الذي يدخل على الشاربين
فيشاركهم الشراب من غير ان يدعى له كالوارش مع الطعام •

وهذا النص يشعرنا ان من الجاهليين زمن الشاعر امرئ القيس من
يؤمن بالله فيتخرج من شرب الخمر • وهو يعني ان لهم قدراً من فكر ديني
مادته ألوهية حقة تتوزع في فرائض ورسوم وواجبات • وهذا شيء من مادة
حضارية متقدمة في السلوك الاساني سمحت به عريّة جاهلية اضطلعت
بنماذج حضارية الى جانب غناها بالمواد البدوية •

ان الدارس ليحظى في كثير من مواد أدب الجاهليين على ما يتصل
بالحياة الدينية في صورها القديمة ورسومها التي مارسوها في حياتهم فهذا
بشر ابي خازم يقول^(٤) :

حلفت برب الداميات نحورها وما ضم اجواز الجواء ومذنب
فهو يحلف بالهدي الذي ينحر للالهة •

واذا قرأت قول امرئ القيس^(٥) :

تضيء الظلام بالعشاء كأنها منارة مسمى راهبٍ مبتل

(٣) ديوان امرئ القيس (دار المعارف) ص ١٢٢

(٤) ديوان بشر بن ابي خازم (دمشق ١٩٦٠) ص ٨

(٥) ديوان امرئ القيس ص ١٧

أدركت صورة الراهب الاشيب المتبتل ومصباحه في جوف الليل • ومن غير شك انه شبه وجه حبيته بذلك • ان هذا المشهد الذي يقربه الشاعر من بيئة حضرية تنتظمها شخوص ومشاهد دينية قد برز في أدبه فكان منه نماذج عدة • ثم ان الاشارات الى الأديان وأهلها والى شيء من نوازمها لكثيرة جداً فهذا امرؤ القيس يشبه ناقته ببيان اليهودي اظهاراً لقوته وصلابة عودها فيقول^(٦) :

فعزيزت نفسي حين بانوا بجسرة أمون كبنيان اليهودي خيفق
ولعلك تلمح مادة حضارية في لغة جاهلية وأنت تقرأ قول بشر^(٧) :
فقل كالذي قال ابن يعقوب يوسف لاخوته والحكم في ذاك راسب
فاني سأمحو بالذي أنا قائل به صادقاً ما قلت اذ أنا كاذب
ان هذه الاشارات التاريخية وضرب المثل بذلك ليشير الى ان الشاعر الجاهلي لم ينصرف الى البيئة الجاهلية انصرافاً لا تعرف فيه اشراقة حضارية • وهذا يهدينا الى القول ان العربية الجاهلية قد عرضت لها محنة الاعراب عن نماذج حضرية في بيئة أخذت من هذه المواد قدراً •

ولقد أشرت الى حديث الشاعر القديم عن الراهب ، ولم يكن ذاك شيئاً نادراً في ذلك الادب القديم فقد ألفه الدارس وعرف ان الجاهليين عرفوا الديارات وما يقيم فيها الرهبان من رسوم دينية وما يشتمل عليه من أدوات ومواد تنتظم في ذلك الاطار الديني •

يقول امرؤ القيس^(٨) :

نظرت إليها والنجوم كأنها مصاييح رهبان تشب لقفال
والاشارة الى النار ، أي نظرة الى النار •

(٦) المصدر السابق ص ١٦٩

(٧) ديوان بشر ص ٤٢

(٨) ديوان امرؤ القيس ص ٣١

ثم يقول وهو يصف البرق (٩) :

يضيء سناه أو مصاييح راهب أهان السليط بالذبال المقتل
ألا ترى ان هذه الصورة للبرق من شخوص الطبيعة بدوية كانت أم
حضرية قد حظيت بصورة مشبهة لها حضرية خالصة لها حين ذكر الشاعر
أجزاء الصورة من الزيت والذبال المقتل أي القتائل •

ولا بد لنا أن نعرض لهذه الشخوص الجادة والتي تنتظم في الحياة
الدينية بل قد تؤلف مادة فكر ديني جاهلي فتقرأ في ديوان أوس بن
حجر (١٠) :

حلفت برب الداميات نحورها وما ضم أجساد اللبائن وكبكب
فهو يقسم بربّ الهدي يساق الى البيت فينحر تقرباً • ثم ان هذا
الحلف والقسم ليتجاوز « ربّ الداميات » فيكون الثلاث والعزّي ثم الله
وهو أكبر من هذه الآلهة الممثلة بالأوثان فيقول (١١) :

وباللات والعزّي ومن دان دينها وبالله إن الله منهن أكبر
وهو يقول أيضاً (١٢) :

فان يهوا أقوام رداي فانسأ يقيني الاله ما وقى وأصادف
ثم يقول (١٣) :

فلا وإلهي ما غدرت بذمة وانّ أبي قبلي لغير مئذم

(٩) المصدر السابق ص ٢٤

(١٠) ديوان أوس بن حجر ص ٧

(١١) المصدر السابق ص ٣٦

(١٢) المصدر السابق ص ٦٤

(١٣) المصدر السابق ص ١١٨

وما أظن ان هذا الأدب وهو يفصح عن هذا الخلق الديني منصرف الى
بدارة جافية أو بعيد عن فكر حضاري قائم على عقيدة دينية راسخة
الأصول •

وأنت تبصر ان الشاعر الجاهلي يسلك زاداً نافعاً من ثقافة يستعين بها
على الاعراب عن أدبه وفكره القديم فهذا أوس الشاعر يقول (١٤) :

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه كما صدّ عن نار المهول حالف

ان المهول هو القائم على النار المقدسة والضمير في قوله « استقبلته »
يعود الى الثور الوحشي • لقد كانوا يحلفون بالنار وكانت لهم نار يقال
انها كانت باشراف اليمن ، فاذا تفاقم الأمر بين القوم فحلف بها انقطع بينهم،
وكان اسمها هولة أو المهولة ، وكان سادنها اذا أتى رجل هيبه من الحلف
بها ولها قيم يطرح فيها الملح والكبريت فاذا وقع فيها استشاطت وتنقضت
فيقول هذه النار قد تهددتك • فان كان مريئاً نكل وان كان بريئاً
حلف (١٥) •

وأنت تحسّ ان هذا الشاعر الذي وصفناه أنه بدوي فلم ننظر الى
ما كان له من ثقافة واسعة يقول (١٦) :

والفارسية فيهم غير منكرة فكلهم لايه ضيزن سليف
وفي البيت اشارة الى ما أباحته الفرس من تزوج الولد من أمه
وخالته •

(١٤) المصدر السابق ص ٦٩

(١٥) المعاني الكبير ط. حيدر آباد - الهند ١/٤٣٤

(١٦) ديوان أوس ص ٧٥

وفي ديوان زهير بن أبي سلمى مادة حضارية ذات قيمة تاريخية • وانك
لتشعر أن هذا الشاعر ليس بعيداً عن فكر اسلامي متقدم حين يقول (١٧) :

فلا تكتُمَنَّ اللهَ ما في نفوسكم
ليخفى ومهما يكتُم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتابٍ فيُدْخَرُ
ليوم الحساب أو يُعْجَلُ فيُنْقَمَ

ان أجزاء هذين البيتين وهي الله والكتاب والحساب وما يتبع ذلك من
لوازم ، خلاصة فكر ديني ثابت الدعائم راسخ الأصول •

ومثل هذا نجده في شعر لييد وهو أحد أصحاب المطولات • وقد يقال
ان لييداً أدرك الاسلام فثقف من مادته شيئاً ، غير أننا لا نستبعد أن يكون
قد عرض له كثير من هذا في جاهليته •

ولنعرض لحديث « الكتابة » في تلك النماذج الأدبية القديمة لتؤكد أن
وجوهاً حضارية حفل بها أدبنا القديم وان العربية الجاهلية كانت لغة حضارة
الى جانب الاعراب عن معاني البداوة وأجزائها الكثيرة •
فهذا امرؤ القيس يقول (١٨) :

لمن° طلل أبصرته فشيجاني كخط زبور في عسيب يمان
يقول : أحزني الطلل كخط زبور أي دَرَس فلا يرى منه الا مثل
الكتاب في الخفاء •

وهو يقول (١٩) :

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان
ورسم غفت آياته منذ أزمان
أت حجاج بعدي عليها فأصبحت
كخط زبور في مصاحف رهبان

(١٧) شرح ديوان زهير ص ١٨

(١٨) ديوان امرؤ القيس ص ٨٥

(١٩) المصدر السابق ص ٨٩

انك تبصر أنه شبه الرسم الدارس للطلل بالزبور وخطه الذي أتى عليه الزمان فمحا من سطورهِ ما محاً ، وهو يشير الى أن هذا « الكتاب » المزبور من صحف الرهبان في دياراتهم . وما أظنك الا أن تذهب معي في أن الأديب الجاهلي ليس كأحد من أهل البداوة ممن انقطعوا في باديتهم فلا يرون الا الفلاة وشخوصها البدوية .

وهذا بشر بن أبي خازم يقول فيعرض « لكتاب بني تميم » فيقول (٢٠):
وجدنا في كتاب بني تميم أحق الخيل بالركض المعار
وهو يقول أيضاً حين يعرض للرسوم والأطلال (٢١):
كأنها بعد عهد العاهدين بها

بين الذنوبِ وحزمي واحفِ صُحُفُ
وهذه الصورة وهي تشبيه الطلل الدارس بالكتاب الذي أتت على سطورهِ الأيام ، ترد كثيراً في أدبهم القديم فهذا زهير يقول (٢٢):
لمن طلل كالوحي عافٍ منازلُهُ عفا الرّش فالرئيسُ فعاقِلُهُ
والوحي هو الكتاب . وحديث « الوحي » هذا كثير في شعره ومنه (٢٣):

دارٌ لأسماء بالغمرين ماثلةٌ كالوحي ليس بها من أهلها أرمُ
أي ليس بها أحد .
وقوله (٢٤):

لمن الديار غشيتها بالفدْ قد كالوحي في حَجَرِ المسيل المُخْلِدِ

(٢٠) ديوان بشر ص ٧٨

(٢١) المصدر السابق ص ١٣٧

(٢٢) شرح ديوان زهير ص ١٢٦

(٢٣) المصدر السابق ص ١٤٦

(٢٤) المصدر السابق ص ٢٦٨

والإشارة إلى الكتابة والكتاب والصحف والزبر كثيرة في أدبهم فهذا
ليبد يقول (٢٥) :

دَرَسَ المَنَا بِمُتَالَعِ فَأَبَانَ وَتَقَادَمَتْ بِالْحُبْسِ فَالسُّوبَانِ
فَنِعَافِ صَارَةَ فَالْقَنَانِ كَأَنَّهَا زُبُرٌ يَرْجَعُهَا وَلِيدٌ يَمَانِ
مَتَعَوَّدٌ لَحْنٍ يَتَعِيدُ بِكَفِهِ قَلَمًا عَلَى عُسْبٍ ذَبْلَنَ وَبَانَ
فَأَنْتَ تَرَى الصُّورَةَ كَامِلَةً تَنْتَظِمُ الْوَلِيدَ الْيَمَانِيَّ مُمْسِكًا بِكَفِهِ الْقَلَمَ
يَخْطُ عَلَى الزُّبْرِ •

وهو يقول أيضاً (٢٦) :

عَفَا الرَّسْمَ أَمْ لَا بَعْدَ حَوْلٍ تَجَرَّمَا
لِأَسْمَاءِ رَسْمٍ كَالصَّحِيفَةِ أَعْجَمَا

ويقول أيضاً (٢٧) :

وَجَلَا السَّيُولُ عَنْ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا
مَرْتَجِي زُبُرٌ تَجْدُرُ مَثَوْنَهَا أَقْلَامُهَا
فَالصَّحِيفَةُ وَالْأَقْلَامُ وَالزُّبُرُ شَيْءٌ اسْتَعَانَ بِهَا الشَّاعِرُ لِتَصْوِيرِ مَادَتِهِ
الْبَدْوِيَّةِ • أَلَا تَرَى غَلَبَةَ مَادَةِ الْحَضَارَةِ عَلَى أَنْمَاطِ الْبَدَاوَةِ الْمُتَخَلِّفَةِ •
وَلَا بَدَأَ أَنْ أَعْرَضَ لِلصُّورِ الْفَنِيَّةِ الْآخَرَى فِي أَدَبِ الْجَاهِلِيِّينَ الْأَقْدَمِينَ
فَأَشِيرُ إِلَى الرَّسْمِ وَالنَّحْتِ وَالْغَنَاءِ وَالْآلَاتِ وَغَيْرِهَا •

(٢٥) ديوان ليبد (ط . الكويت) ص ١٣٨

(٢٦) المصدر السابق ص ٢٧٨

(٢٧) المصدر السابق ص ٢٩٩

هذا هو امرؤ القيس يعرض لبيت بجوار وادي الساجوم كأن دُمى
سقفه الحور الغرائر قد حلين الياقوت وقلائد الذهب على هيئة فقر الجراد ،
تضوع منهن رائحة السنا الذكية فيقول (٢٨) :

كأن دُمى سُقف على ظهر مَرمرٍ
كسا مزبد الساجوم وشياً مصورا
غرائر في كنٍ وصونٍ ونعمةٍ
يُحَلِّينَ ياقوتاً وشذراً مفقرا
وريحَ سنا في حَقّةٍ حميريةٍ
تُخَصِّشُ بمفروك من المسك أذفرا
وباناً وألويّاً من الهند ذاكياً
ورنداً ولبنى والكباء المقتترا

أقول : ألا ترى أن « بيت » امرئ القيس هذا ليس الا قصراً من قصور
الحضارة المترفة الانيقة فقد حفل بصور الدمى والوشى المصور والبناء ذي
السقف من المرمر . ثم انه استعان على ذلك فشبه الدمى بالغرائر الحسان
ذوات الصون والنعيم في أكمل زينة وأجل هيئة .

أما الحديث عن النعيم المتمثل في الوشي الأنيق الذي يشير الى أن
الجاهليين عرفوا ضروباً من الترف فنجدته في قول امرئ القيس (٢٩) :

خرجتُ بها تمشي تجرّ وراءنا
على أثريّنا ذيَلٍ مرطٍ مَرَحَلٍ
والمرط المرحّل هو الثوب الموشى والذي عُيِّنَ وشيه كتعيين
جَدَايات الرَحَل وهو ضرب من البرود .

(٢٨) ديوان امرئ القيس ص ٥٩

(٢٩) المصدر السابق ص ١٤

ومن لوازم الترف والالاقة العطور التي وردت في أدبهم وها هو ذا
امرؤ القيس يقول (٣٠) :

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها

تؤوم الضحى لم تنطق عن تفضّل

وأنت كانوا يجتهدون في أن يتوفر لديهم من مواد الترف فيجلبونها من
الهند وأطرافها تجارة بحرية بالسفن والى هذا يشير الشاعر فيقول (٣١) :

إذا ذقت فهاها قلت طعم مدامة

معتقة مما يجيء به التجبر

وقد عرفوا هذا اللون من التجارة ولذلك جاء في تشبيهاتهم (٣٢) :

فشبّههم في الآل لما تكمّشوا

حدائق دؤم أو سفينا مقيرا

وأنت تدرك من تشبيهاتهم أنهم عرفوا من مواد الحضارة والترف
والالاقة القدر الكبير فامرؤ القيس يشبه لحم ناقته بهدّاب الدمقس المقتل
أي الحرير المفتول فيقول (٣٣) :

يظلّ العذارى يترتمين بلحمها

وشحم كهدّاب الدِمَقْسِ المَقْتَلِ

ويقول (٣٤) :

إذا ما الثريا في السماء تعرّضت

تعرّضَ أثناء الوشاح المفصّل

(٣٠) المصدر السابق ص ١٧

(٣١) المصدر السابق ص ١١٠

(٣٢) المصدر السابق ص ٥٧

(٣٣) المصدر السابق ص ١١

(٣٤) المصدر السابق ص ١٤

ويقول (٣٥) :

دَعَرْتُ بِهَا سِرْباً ثَقِيلاً جُلُودَهُ
وَأَكْرَعُهُ وَشِيءُ الْبُرُودِ مِنَ الْخَالِ

ويقول (٣٦) :

وَعَسَى كَأَلْوَاكِ الْأَرَانِ نَسَائَتَهَا
عَلَى لَاحِبٍ كَالْبُرْدِ ذِي الْحَبَرَاتِ

لقد شبه الطريق اللاحب بالبرد الموشى أي ذي الحبرات •
وهذا بشر بن أبي خازم يعرض لاختفاف ناقته التي بليت من السير
فيشبهها بقطع الزجاج المتكسر فيقول (٣٧) :

وَقَدْ بَلَّيَ الْاِخْطَافُ الْاَوْشَاطَ
بَقَيْنَ لَهَا مِثْلَ الزُّجَاجِ الْمُهْطَمِ

وكأنهم ضاقوا ذرعاً ببيئهم البدوية أحياناً فتوجهوا الى مشاهدتهم
الحضرية وها هو ذا زهير يقول (٣٨) :

يَقْطَعُنَّ أَجْوَازَ أَمْيَالِ الْفَلَاةِ كَمَا
يَغْشَى الْنَوَاتِي غَمَارُ الشَّجِّ بِالسَّقْنِ
وهكذا ترى النواتي في غمار اللج في السفين كما تقرأ قوله وهو يشبه
الابل مجتمعة في سيرها ، سريعة في الفلاة حيث لا ماء فيها فيقول (٣٩) :

مَعْصُوبَاتٌ يُبَادِرُنَ النِّجَاءَ بِنَا
إِذَا تَرَامَتْ بِهَا الدِّيمُومَةُ الْجَدَدُ
عُومَ الْقَوَادِسِ قَقَى الْأَرْدَمُونَ بِهَا
إِذَا تَرَامَى بِهَا الْمَغْلُوبُ الزَّبَدُ

(٣٥) المصدر السابق ص ٣٧

(٣٦) المصدر السابق ص ٨١

(٣٧) ديوان بشر ص ١٩٨

(٣٨) شرح ديوان زهير ص ١٥١

(٣٩) المصدر السابق ص ٢٨٠

والقوادم هي السفن ، والأردمون جمع أردم أي الملاح •
أما حديث الزراعة فكثير أيضاً وها هو ذا الشاعر ليبد يعرض للنخيل
فيقول (٤٠) :

جَعَلَ "قصار" وعَيْدانَ ينوء بها
من الكوافر مكمومٌ ومهْتَصِرٌ
الجَعْلُ : القصار من النخل • والعَيْدان : الطوال • وينوء به :
ينهض به ، وقال أبو عمرو : يسقط به • ومكموم أي كمامته غلاقة • ومهْتَصِرٌ :
متدل •

ثم يقول :

يشربنَ رِفْهاً عِراكاً غير صادرةٍ
فكلّشها كارعٌ في الماء مُغْتَمِرٌ
أما حديث الغناء وآلاته فكثير في أدبهم وها هو ذا عبيد بن الأبرص
يقول (٤١) :

ومسمعة قد أصحَل الشربُ صوتها
تأوَّى إلى أوتار أجوفٍ محنوبٍ
أي ان الشاربين أصحَلوا صوتها أي جعلوه مبجوحاً فهي تلجأ إلى أوتار
آلتها المحنية •

وها هو ذا الشاعر طرفة يقول (٤٢) :

ندامايَ بيضٌ كالنجومِ وقِيْنَةٌ
نروحُ علينا بين بُردٍ ومُجَسَّد

(٤٠) ديوان لبید ص ٥٨

(٤١) ديوان عبيد بن الأبرص (تحقيق حسين نصار) ص ٢٥

(٤٢) ديوان طرفة (ط . صادر) ص ٣٠

ولا بد من الاشارة الى ما يتصل بالزراع من العناية المقصودة لأخلص الى مكان اللغة في هذا اللون الحضاري . لعله من الثابت أنه لم يؤثر عن الجاهليين شيء كثير مما يتصل بالفلاحة والزراع والاهتمام بالأرض على أنها مستقر وقترى تزرع فيتخذ من ذلك مادة حضارة واستقرار . ولم يشذ عن هذا النمط من الحياة الجاهلية القديمة الا ما عرف عن أطراف بلاد العرب كما كان في اليمن التي كان فيها للزراعة مكان أي مكان ، وكما كان في شرب والطائف من عناية بصنوف الشجر المثمر والنخيل ومثله ما كان في هجر وأطراف عمان .

غير اننا لا نعرف اهتماماً بالأرض وزراعتها الا في العصر الاسلامي فقد جاء في الأثر : ان الرسول (ص) قد اهتم بالأرض ووزعها بين طائفة من المسلمين فأقطع علي بن أبي طالب أرضين هنا وهناك كما أقطع الزبير وأبا بكر وعبدالرحمن بن عوف وأبا دجانة سماك بن خرشة الساعدي . وخلف بعد الرسول الراشدون فساروا سيرته بالعناية بالأرض ولا سيما في الأقاليم المفتوحة ، ومثل ذلك كان في خلافة بني أمية .

وكانت العربية قد وفّت بهذه الحاجات الجديدة مما اقتضته الزراعة من تهيئة الأرض وسقيها وما يستخدم في ذلك كله من أدوات وآلات . ولا بد ان نستقرى هذه المواد مما يتصل بمصادر المياه كالآبار والعيون والغدران والمسائل . ان مجموع هذه المواد تؤلف معجماً وافر المواد يتصل بالزراع وحاجاته وأدواته . وقد فطن الى هذا الباب اللغويون الاقدمون فصنّفوا رسائلهم في طائفة من موضوعات هذا الباب الكبير ، فكانت كتب للنبات وكتب للشجر وكتب للكرم وكتب للنخل وكتب أخرى تتصل بالزراع والأرض وما يلزمها من مواد .

وأنت تستطيع أن تجمع شيئاً مما يتصل بأدوات السقي وأدوات الزرع
من كتب اللغة العامة^(٤٣) . ومن غير شك ان اللون البدوي كان يشغل من
الرقعة العربية ومن طبقات المجتمع القديم حيزاً كبيراً . ان البداوة أبت
ميسمها وطابعها في حياة الجاهليين وعاداتهم وأخلاقهم وأدبهم وسائر أوجه
النشاط الانساني القديم . ولعل شيئاً من هذا عرض للاسلاميين فلم ينج نهر
من هذه الآثار البدوية . وقد ارتضى هؤلاء البداوة أسلوباً وحياة ، ومن ثم
فقد تنكروا لمظاهر الحياة الحضرية وما يتصل بها من الزراعة والعناية بالأرض
فدموا هؤلاء الذين لزموا الأرض وعنوا بها .

غير أننا لا نعدم أن نجد طائفة أخرى رضيت عيش الحضر فاهتمت
بالزراعة اهتماماً نلمحه في أدبهم . واذا كان هناك اهتمام بالزراعة فلا بد أن
يكون اهتمام آخر بنواحي الحياة الحضرية الاخرى كالاهتمام بالحرف التي
نظر فيها أهل البداوة لوناً من ألوان الذل والجبن والاستكانة .

وكان أهل الحواضر قد استساعوا نمط العيش ذلك افنا نجد أمية بن
أبي الصلت من الجاهليين قد عاش في الطائف الحاضرة التي عرفت الزرع
والخضرة والبساتين وهو يشير الى ذلك في قوله :

فأنبتنا خضارم ناضرات يكون تتاجها عنباً وتينا

ومن المواطن الحضرية في بلاد العرب « البحرين » التي عرفت ببساتين
النخل والشجر ، ومن أجل هذا جاءت الاشارات الى هذا في قول الصلتان
العبدى وهو يرد على الشاعر جرير الذي عيّر قومه بأنهم أهل نخل وزرع ،
قال :

أعيرتنا بالنخل ان كان ما لنا

لودء أبوك الكلب لو كان ذا نخل

(٤٣) انظر « المخصص » لابن سيده في ابواب الارض والزرع وما يتصل بهذا .
ومثل ذلك كتاب « التلخيص » ٤٤٢/٢ ، ٤٧٢

وهو يشير في قصيدته هذه الى أن قرى الزرع والنخل موطن أهل الخير
والصلاح ، وان الله - جل وعلا - اختار النبيين والرسل منهم وهو يقول :

وأي نبي كان من غير قرية

وما الحكم يا ابن اللؤم الا مع الرسل

وليس غريباً ان يرى الصلتان العبدى في الفلاحة والزرع مظهراً من
مظاهر الخير والصلاح ، في حين ان جريراً يرى في هذه المظاهر الحضريّة
عيّاً ونقصاً لا يحسن بأهل المروءة أن يلتزموا بها وهو يقول :

أقول ولم أملك ——— وابق عبرة

متى كان حُكم الله في كَرَب النخل

وهو يخاطب الصلتان بهجوه فيقول :

كم عمة لك يا خَلِيد وخالصة خضر نواجزها من الكسرات
نبتت بمنبته فطاب لشَمَمُها ونأت عن القيصوم والجثجات

فأنت ترى مقدار تعلق جرير بالبيئة البدوية وبعدها عن مواطن
الحضارة التي ارتضت الزرع وسيلة للعيش واستقراراً في قرى النخل
والشجر .

وهذا أمية بن أبي الصلت يذكر أهله بأنهم يلومونه على اقتناء بساتين
النخل فيقول :

يلومونني في اشتراء النخيل أهلي فكلثهم يعذل

وبعد فهذا عرض لصور من أدبنا القديم برزت فيها امارات حضريّة
بعيدة عن البداوة الجافية . وقد أدركنا منها أن في العربية الجاهلية سعة
للاعراب عن مظاهر الحضارة كما هي حافلة بسواد البداوة في الوقت نفسه ،